تقنيات الإقناع في الخطابة
خطبة الرسول للأنصار (ﷺ) نموذجًا

الدكتور

عصام محمود أحمد

مدرس بكلية الآداب جامعة حلوان

تقنيات الإقناع في الخطابة
خطبة الرسول للأنصار(ﷺ) نموذجًا
(1)

الاقتناع والإقناع:

هل ثمة تقارب حادث بين الكلمتين أم يختلفان في المعنى؟ الاقتناع صورة معقدة من صور الصراع النفسي؛ إذ يتعلق بشكل كبير بالشخص ذاته، وحواره مع نفسه، فهو حجاج داخلي يتحول فيه الموقف ويتغير نتيجة صراع المرء النفسي، وحوار أفكاره الداخلية، ويتحقق هذا الاقتناع نتيجة لتراكمات عدة في نفس الإنسان، حتى تتحول آراؤه وأفكاره لصورة مغايرة للسابق، ويتحقق هذا الفعل في فترة زمنية طويلة، ولا يمكن حدوثه إلا نتيجة صدمات قوية تغير من قناعاته؛ فتحدث له هزة نفسية.

أما الإقناع فإنه صورة من صور الصراع الخارجي/ الداخلي، فيسعى شخص ما حاملا لفكر مغاير إلى محاولة تغيير الفكر الراسخ في عقل آخر، ومن ثم الرأي عند شخص آخر أو مجموعة من الأشخاص، فيتصارع عقلان أو أكثر في قضية معينة، يحمل كل منهما رأيًا مخالفا بل متعارضًا أحيانًا من أجل السيطرة والتحكم، حتى يتمكن عقل من السيطرة علي غيره، وينقل إليه موقفه؛ فيذعن هذا العقل إلى رأيه، وهنا يتحقق الإقناع. ولاشك في أن" من أهم التقنيات ذات الصلة الوثيقة بالمقال الجدلي، تقنية عرض أو ذكر الآراء البديلة والمعارضة **Opposing alternative views** إن من يرغب في إثارة جدل حقيقي يجب أن يهيئ نفسه للإجابة عن الأسئلة المعارضة مستخدمًا في ذلك البراهين والبدائل"[1].

إذن الإقناع هو الإذعان والاستسلام في الرأي لموقف معين، والتسليم لحجيته، والتخلي عن الرأي القديم، وتبني موقف جديد، يعكس وجهة نظر المتلقي؛ فـ" الخطاب الجدلي في تعامله مع العقل يدافع عن رأي ويدحض رأيًا آخر، الرأي والرأي الآخر هما مدار الحوار والنقاش في الخطاب الجدلي. في حين إن هناك خطابات حجاجية تعرض فكرة واحدة وتحاول بطرق مختلفة ووسائل شتى أن تقنع المتلقي بها"[2]؛ فالإقناع يتطلب أطرافا معينة هي: سياق معين، ومرسل، ومتلق، ورسالة وآليات يتطلبها الموقف، وهو ما يعرف في البلاغة الحديثة بالحجاج؛ فالحجاج هو: دراسة تقنيات الخطاب التي من شأنها أن تؤدي بالأذهان إلى التسليم بما يعرض عليها من أطروحات أو أن تزيد في درجة التسليم"[(3)]. وعلى ذلك فإن الفارق الجوهري في العلاقة بين الاقتناع والإقناع هو الوسيلة التي تم بها حدوث هذا التأثير" إن المرء فى حالة الاقتناع يكون قد أقنع نفسه بواسطة أفكاره الخاصة. أما فى حالة الإقناع فإن الغير هم الذين يقنعونه دائمًا"[4]..

الموقف: يمكن شرح إشكالية الإقناع لو اطلعنا على موقف الجاحظ من قضية تشكيل الشعر وبنائه؛ وأنا رأيت أبا عمرو الشيبانيَّ وقد بلغ من استجادته لهذين البيتينِ، ونحن في المسجد يوم الجمعة، أن كلَّف رجلاً حتى أحضر دواةً وقرطاساً حتَّى كتبهما له، وأنا أزعم أنَّ صاحب هذين البيتين لا يقول شعراً أبداً، ولولا أن أدخِلَ في الحكم بعض الفتك؛ لزعمتَ أنّ ابنَه لا يقول شعراً أبداً، وهما قوله:

لا تحسِبَنَّ الموتَ مَوْتَ البِلَى فَإنَّما الموتُ سُؤالُ الرِّجالِ

كلاهما موتٌ ولكنَّ ذَا أفظَعَ من ذاكَ لذلِّ السّؤال

وذهب الشّيخ إلى استحسان المعنى، والمعاني مطروحة في الطريق يعرفها العجميّ والعربيّ، والبدويّ والقروي، والمدنيّ. وإنّما الشأن في إقامة الوزن، وتخيّر اللفظ، وسهولة المخرج، وكثرة الماء، وفي صحّة الطبع وجودة السّبك، فإنما الشعر صناعة، وضرب من النّسج، وجنس من التّصوير"(5).

فقد سعى الجاحظ إلى إقناع المتلقي بوجهة نظره التي تخالف ما ذهب إليه أبو عمرو الشيباني، فقد أعجب الشيباني بمعاني الشعر ، ورفض الجاحظ هذا التوجه مُقَدِّمًا وجهة نظر مفادها أن الشعر لا يتوقف على المعنى وحده، إذ لا يختلف اثنان حول النعوت في الشعر، ومجال التميز فيها محدود ، لأنها عامة بين معظم البشر، وإنما الصياغة والتشكيل هما محور بناء الشعر، وعنصر التميز والتفاضل بين الشعراء.

ويمكننا شرح الموقف بصورة أخرى ؛ لو تخيلنا حدوث جريمة معينة قتل مثلا فإن هناك وجهات نظر متخلفة بناء على نظرته لهذه القضية ، ولابد أن تكون الأدلة على ارتكاب الجريمة قوية حتى تقنع النيابة بتقديم المتهم إلى المحكمة، ثم تبدأ النيابة في سرد وقائع الدعوى محل الخلاف، وتعرض القرائن والشكوك على المحكمة، ونظرا لبدء النيابة بالحديث فإن كثيرًا من الحضور، وربما هيئة المحكمة تكون قد بدأت تميل مع رأي النيابة في يقين ارتكاب المتهم للجريمة.

ولكن على الجانب الآخر هناك وجهة نظر محامي المتهم الذي يري أن موكله بريء من الجريمة، حتى لو كان يؤمن بأنه مذنب، لكنه يدافع عنه لاعتبارات كثيرة، ويتبنى موقفه؛ فالموقف يتحدد بحسب موقع الفرد من الحدث.

(2)

الاتصال والتواصل:

الاتصال هو الهدف الأول للغة إن لم يكن الوحيد، وهو أمر قديم قدم اللغة ذاتها ولم يكن تعريف ابن جني للغة" أنها أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم"[6] إلا تأكيدًا لهذه الحقيقة .

وتطور الاتصال اللغوي في الدراسات الحديثة عندما حصر دوسوسير عناصر الاتصال اللغوي في المرسل والمتلقي والرسالة، ثم قام بوهلر بطرح فكرة وظائف اللغة في الرسالة اللفظية فقد قدم "كارل بوهلر" **Karl Bühler** في عام 1934م، أفكارًا ذات طبيعة خاصة في كتابه "نظرية اللغة" حيث اقترح تقسيمًا جديدًا للوظائف اللغة، فهو يفرق بين الوظيفة الرمزية وتعني الإحالة إلى أشياء أو أحوال، والوظيفة العرضية والتي تعبر عن آرائه وأحاسيسه أو فكره ومشاعره، ومن ثم تعتبر عرضًا من أعراضه أي ظاهرة من ظواهره، والثالثة هي الوظيفة الإشارية التي تبع من إشارتها إلى المستقبل أو السامع، ومدى تجاوبه معها، مثل إشارة المرور. ويقول أندرز بيترسون: إن تقسيمات رومان جاكبسون لوظائف اللغة تعتبر تطويرا ذكره بوهلر[7].

وطور ياكبسون هذه الفكرة في وظائف اللغة حيث يقول في توضيحه لمسار الرسالة اللفظية : "يقوم المرسل بإرسال رسالة إلي المرسل إليه. وتتطلب هذه الرسالة لكي تكون فاعلة، سياقا تشير إليه، يمكن للمرسل إليه استيعابه، والسياق إما أن يكون لفظيا، أو يمكن له أن يكون كذلك. كما تقتضي الرسالة شفرة مشتركة كليا، أو جزئيا، بين المرسل والمرسل إليه، وقناة اتصال فيزيائية، أو رابط سيكولوجي، بين المرسل والمرسل إليه، يمكنها من إقامة عملية الاتصال، والإبقاء عليه"[8]، وقد وضع ياكبسون المخطط التالي لشرح فكرته السابقة:

سياق

مرسل رسالة مرسل إليه

اتصال

شفرةاسنن

شكل(1) ص(27)

ثم شرح علاقة المخطط بوظائف اللغة فأوجد ستة وظائف ترتبط كل واحدة منها بمحور من المحاور الستة السابقة على النحو التالي:

مرجعية

انفعالية شعرية إفهامية

شارحة/ميتا لغوية

انتباهية

شكل(2) ص(33)

فالاتصال يتحقق عندما يتمكن المرسل من نقل رسالته إلى المتلقي، ودرجة التحقق تكون بمقدار تمكن المرسل من نقل رسالته، فقد ينقل المرسل جزءًا من رسالته ولا يتمكن من نقل الجزء الآخر، وموانع تحقق الاتصال كثيرة، ويكون هذا راجعا في الغالب لعدم كفاءة عنصر من عناصر الاتصال الستة.

إن الرسالة التي ينقلها النص من المرسل إلى المتلقي تحمل ثقافة صاحبها وأفكاره وأيديولجياته الخاصة، وقد ينجح المرسل في نقل هذه الرسالة كاملة ويتحقق تمام الاتصال، ولكن لا يتحقق تمام التفاعل والتواصل، وهو عنصر سابع غير موجود في عناصر الاتصال اللغوي عند ياكبسون .

ويعد التفاعل مع الرسالة المرسلة من قبل المرسل هو تمام التواصل لا الاتصال، فالمرسل يرسل رسالته لا بهدف الاتصال بوحدة ما وإنما يهدف إلى التواصل، وهو ما نسميه بلاغة الاتصال.

ولو نظرنا إلى شرح ياكبسون لوظائف اللغة نجد أنفسنا أمام ثلاثة وظائف رئيسة للرسالة اللفظية؛ الشعرية والإفهامية والانفعالية. فالشعرية هي الوظيفة التي تقصد بها الرسالة لذاتها أو الوظيفية الفنية. والإفهامية هي الوظيفة التي يقصد من خلالها المرسل توصيل فكرة أو شرحها للمتلقي مثلما يحدث في قاعة الدرس، أما الانفعالية فهي الوظيفة التي ينطلق فيها المرسل معبرا عن نفسه ومن ثم يكثر فيها ضمير المتكلم طاغيا في الرسالة، وإن لم يظهر في النص بصورة مباشرة فإنه يكون جليًا في المعنى. ولا توجد رسالة لفظية تحمل وظيفة واحدة بل تحمل الوظائف الثلاث عند ياكبسون .لكن يتم الحكم على الرسالة من خلال الوظيفة الغالبة عليها، "إن الدراسة اللسانية للوظيفة الشعرية ينبغي أن تتجاوز حدود الشعر، ومن جهة أخرى لا يمكن للتحليل اللساني للشعر أن يقتصر على الوظيفة الشعرية فخصوصية الأجناس الشعرية المختلفة تستلزم مساهمة الوظائف اللغوية الأخرى بجانب الوظيفة الشعرية المهيمنة وذلك في نظام هرمي متنوع"[9].

(3)

الخطابة والاتصال والإقناع:

وتعد الخطابة من الفنون النثرية التي تعتمد الاتصال المباشر بين المرسل والمتلقي، فهي فن له خصوصية، ويهدف به إلى التأثير في نفس المتلقي، وتحقيق الإقناع، ومن ثم تغيير الموقف أو تأكيده وتثبيته، وهذا بحسب الهدف المرجو من الخطبة.

كانت الخطابة في العصور القديمة ذات أثر كبير، ولها أهمية عظيمة في نفوس الناس، سواء عند اليونان أو العرب في العصر الجاهلي، وكان لها موقعها المناسب في العديد من المواقف التي تحتاج إليها الحياة في العصر الجاهلي، مثل؛ التحريض على القتال للحث على الدفاع عن مجد القبيلة وشرفها، فهي وسيلة للدعاية والحرب الإعلامية بين القبائل، وفي نهاية الحروب يأتي نوع آخر من الخطب التي تحض على الصلح والسلام بين القبائل، وفي اجتماعات القبائل والزيارات المتبادلة بينها، كما كانت الخطابة تقليدًا مهمًا في الزواج؛ فقد قام ورقة بن نوفل خطيبًا

عن بني أسد في زواج الرسول(صلى الله عليه وسلم) من السيدة خديجة بنت خويلد، وخطب أبو طالب عم النبي(صلى الله عليه وسلم) نائبا عن بني هاشم.

ولمكانة الخطابة وأثرها في النفوس فضل بعض النقاد النثر على الشعر وأبرزهم المرزوقي الذي فضل الخطابة على الشعر:"إن ملوكهم قبل الإسلام وبعده كانوا يتبجحون بالخطابة والافتنان فيها، ويعدونها أكمل أسباب الرياسة، وأفضل آلات الزعامة.فإذا وقف أحدهم بين السماطين لحصول تنافر أو تضاغن أو تظالم أو تشاجر، فأحسن الاقتضاب عند البداهة، وأنجح في الإسهاب وقت الإطالة، أو اعتلى في ذروة منبر فتصرف في ضروب من تخشين القول وتليينه، داعيا إلى طاعة، أو مستصلحا لرعية، أو غير ذلك مما تدعو الحاجة إليه، كان ذلك أبلغ عندهم من إنفاق مال عظيم، وتجهيز جيش كبير.وكانوا يأنفون من الاشتهار بقرض، ويعده ملوكهم دناءة"[10] .

وبعد ظهور الإسلام وبعثة الرسول(صلى الله عليه وسلم) ، أصبح للخطبة دور مهم في الدعوة الإسلامية، فقد أصبحت ركنًا من أركان صلاة الجمعة وبديلا عن ركعتين من صلاة الظهر، وأصبحت سنة واجبة في صلاة العيدين، وعند المناسبات الضرورية ؛ في الحروب والغزوات ، وعندما يجدُّ أمر من الأمور التي تهم الشأن العام للناس، وتلك سنة حميدة استنها رسول الله (صلى الله عليه وسلم).

ويختلف الأسلوب في الخطابة عن الشعر، من حيث الأوزان والأعاريض وهي العناصر المميزة في الشعر، فالخطابة نوع من النثر المرسل له جرسه الموسيقى الناتج من السجع والجناس والمؤثرات الصوتية الناتجة عن النبر والتنغيم، بيد أن العنصر الأساسي في الشعر هو مخاطبة الأحاسيس والمشاعر بينما في الخطابة يمزج الخطيب بين مخاطبة العقل وإثارة المشاعر والأحاسيس في آن.

وقد اختلف النقاد قديمًا حول موضوع الصدق والكذب في الخطابة والشعر، فقد انحاز الفلاسفة مثل أرسطو وابن سينا والفارابي وابن رشد إلى أن الطابة تقوم على الأقاويل الصادقة بينما يقوم الشاعر على المقولات الكاذبة باعتبار عنصر الخيال فيه ، أما النقاد أمثال ابن طبطبا العلوي ثم قدامة نوعًا ما في حديثه عن المبالغة والغلو فقد انحازوا إلى صدق المقولات الشعرية بينما تعتمد الخطابة على المقولات الكاذبة ، وقد تعرض حازم القرطاجني لهذه النقطة ، فمن خلال تعريفه للشعر نجد أنه يحبذ الصدق أو ما جبل الناس أن يعرفوه ويشتهر بينهم في الشعر فيقول "وإنما صح أن تقع الأقاويل الصادقة في الشعر ولم تصح أن تقع في الخطابة.ما لم يعدل بها عن الإقناع إلى التصديق، لأن ما تقوم به صنعة الخطابة، وهو الإقناع، مناقض للأقاويل الصادقة، إذ الإقناع بعيد من التصديق في الرتبة، والشعر لا يناقض اليقين ما يتقوم به وهو التخييل، فقد يخيل الشيء ويمثل على حقيقته.فلذلك وجب أن يكون في الكلام المخيل صدق وغير صدق، ولا يكون في

الكلام المقنع ما لم يعدل به إلى التصديق إلا الظن الغالب خاصة، والظن مناف لليقين"([11])، فهو يرى أن الصدق يجب أن يقع في الشعر لا الخطابة، والصدق المطلوب هنا هو صدق التخييل والمحاكاة أو ما يعرف بالصدق الفني، وهذا الأمر غير مطلوب في الخطيب؛ إذ إنه ليس مبدعا بل هو يسعى إلى الإقناع بالحجة والبرهان، وقد شاركه هذا القول كثيرون منهم ابن طبابا العلوي وقدامة بن جعفر خاصة عند الحديث عن الغلو في الشعر.

واللغة هي العنصر الرابط بين الخطابة والشعر ، فكل منهما يستخدم اللغة مادة ووسيلة للوصول إلى هدفه. وبذلك يتناقض مع أفلاطون الذي جعل الخطابة"فِعلا قوليا أخلاقيا"[12]، وهو اختلاف بين في الهدف بين ثقافتين مختلفتين وليس مجرد خلاف في الرأي بين اثنين من الفلاسفة فيقول ابن سينا "وكانت (العرب) تقول الشعر لوجهين: أحدهما ليؤثر في النفس أمرًا من الأمور تعد به نحو فعل أو انفعال، والثاني للعجب فقط فكانت تشبه كل شيء لتعجب بحسن التشبيه، وأما اليونانيون فكانوا يقصدون أن يحثوا بالقول على فعل أو يردعوا بالقول عن فعل، وتارة كانوا يفعلون ذلك على سبيل الخطابة وتارة على سبيل الشعر، فلذلك كانت المحاكاة الشعرية عندهم مقصورة على الأفاعيل والأحوال والذوات من حيث لها تلك الأفاعيل والأحوال"([13])، فعلى حين رأى اليونانيون أن الخطابة قول أخلاقي مثله في ذلك مثل الشعر بينما رأى العرب ذلك في الشعر لا الخطابة.

ولعل فن الخطابة عند العرب من أبرز الفنون اللفظية التي تظهر فيها مهارة المرسل في تحقيق الإقناع؛ فالخطابة فن قولي يتوجه به المرسل/الخطيب إلى المتلقي، ويهدف به إلى التأثير في نفس المتلقي، وتحقيق الإقناع.

والخطابة باعتبارها تحمل فكر صاحبها وانفعالاته ووجهة نظره فالوظيفة هنا تتعلق بالمرسل، "وتهدف الوظيفية المسماة "تعبيرية" أو انفعالية المركزة على المرسل إلى أن نعبر بصفة مباشرة عن موقف المتكلم تجاه ما يتحدث عنه. وهي تنزع إلى تقديم انطباع عن انفعال معين صادق أو خادع، ولهذا السبب فإن تسمية الوظيفة الانفعالية التي اقترحها مارثي"**Marty**" قد بدت مفضلة على تسمية "الوظيفة الوجدانية" وتمثل صيغة التعجب في اللغة الطبقة الانفعالية الخالصة"[14].

ويعتمد الخطاب في الخطابة لتحقيق هدفه على مجموعة من العلاقات ترجع في أولها إلى حال المتلقي وطبيعته وطبيعة الحوار وأهميته عند كل من المرسل والمتلقي، وأخيرًا الآليات التي اعتمد عليها المرسل في توصيل فكرته.

- أولا حال المتلقي:

يعتبر حال المتلقي وموقفه من الخطيب والخطبة مؤشرًا دالا على إمكانية نجاح المتلقي في خطبته أو عدم نجاحه، ومن ثم فالمتلقي باعتبار الحال لا يكون نوعًا واحدًا وإنما يتشكل حاله نتيجة لموقفه من كل من المرسل والموضوع؛ ومن ثم فيتنوع المخاطب إلى عدة أنواع:

- المتلقي المؤيد:

يعتبر هذا النوع أسهل أنواع المخاطب في الإقناع؛ فهو يأتي مؤيدًا مساندًا داعمًا للمرسل وعلى استعداد لسماعه، ومن ثم تقبل الحديث والتأثر بها، ولا يحتاج إلى جهد كبير في إقناعه فهو يرى في المرسل نموذجًا يحتذي، وهو هنا ينبهر بشخصيته بعيدًا عن موضوع الخطبة أو أهميته بالنسبة له، فالمستمع الذي ينبهر بسمعة شيخ وأسلوبه واستمع له في درس عبر وسيلة ما يكون على استعداد لتقبل أي شيء منه بمجرد سماعه مباشرة، بعيدًا عن طبيعة الموضوع، فهو قد يقطع المسافات لمجرد سماعه، والانبهار بحديثه.

كذلك يمكن أن ينبهر الطالب بكلام أستاذه الذي يحبه ويكون على استعداد لسماع حديثه والانبهار به، فهو متأثر بكلامه حتى قبل أن ينطق بهذا الكلام..وهناك الصورة المعاكسة فقد ينبهر الأستاذ بكلام تلميذه النجيب عند حديثه ويتوقف مستمعًا له معطيًا له وقتًا طويلا للحديث.

- المتلقي المحايد:

وهو متلق غالبا ما يكون موقفه إيجابيا؛ فهو على الأقل لا يحمل موقفا سلبيًا قبل المتحدث، وعنده استعداد لسماع الحديث بل الاقتناع به ، ويتوقف الأمر الأخير على قدرة الخطيب في توظيف قدراته لصالحه، وتحقيق الإقناع، وهو هنا مثل القاضي الذي يستمع إلى دفاع المحامي في قضية تبدو فيها أدلة الاتهام واهية تنتظر السقوط بين لحظة وأخرى.

- المتلقي السلبي:

هو متلق من النوع الصعب في التلقي؛ فهو غالبا ما يكون رافضا لتلقي الرسالة لأسباب منها؛ إن الرسالة قد لا تعنيه و لا يهتم بها، فقد تكون ميوله أدبية وجلس مصادفة في قاعة تلقي فيها محاضرة فيزيائية لا تعنيه ولن يفهم ما فيها، وهنا يكون مستمعا رغم أنفه، وكذلك قد يكون مثل الطالب الذي يجلس في قاعة الدرس وهو غير راغب في التعلم، وقد يكون الموضوع مهما له لكنه يلقى بلغة غير لغته أو بطريقة غير مفهومة؛ كأن يعتمد المرسل على مجموعة من المصطلحات الغريبة التي لا يعرف المتلقي كنهها ، وهنا قد تسهم بعض عوامل الجذب والإثارة في هذه الحالة في تنشيط المتلقي وتحويله إلى متلق فاعل، ويخرج من سلبيته، وهو ليس بالأمر السهل بل يحتاج جهدًا كبيرًا من المرسل حتى يحقق الهدف المرجو في توصيل الرسالة.

وهذا المتلقي يختلف عن المتلقي السابق\ المحايد الذي يكون غالبا على استعداد للتلقي والتأثر بصورة أكبر، والجهد المطلوب من المرسل سيكون قطعًا أقل من المتلقي السلبي، ومن ثم فالنتيجة المرجوة في الإقناع أقرب منه.

- المتلقي المعاتب:

هذا النوع من المتلقي يكون موقفه قريبا جدًا من موقف المتلقي المؤيد، فبداية هو حامل لموقف إيجابي من المرسل، ولكن حدث في نفسه شيئا، لم يكن يتوقع حدوثه من الخطيب، وغالبا ما ينتظر تفسيرا له، ويكون على استعداد لتقبل العذر والتماسه للخطيب إذا أحسن الخطيب الحجة وأجاد في البرهان والاعتذار.

وقد يكون المتلقي معاتبًا وتجاهله المرسل، أو لم ينجح في إقناعه؛ فتحول إلى متلق غاضب ورافض للرسالة، ويزداد الأمر صعوبة في هذه الحال لتغيير موقفه وتحقيق الإقناع؛ وذلك مثل المتهم الذي حكمت عليه المحكمة في الجنايات، وبقي أمامه الاستئناف؛ فالقاضي هنا أمامه حكم مسبق من محكمة سابقة، ويكون موقف الدفاع في هذه الحال في غاية الصعوبة .

- المتلقي الرافض المعاند:

هذا المتلقي هو الصورة العكسية للمتلقي الأول، فهو متلق رافض للحديث، يأخذ موقفا معارضا من المرسل أو الموضوع أو كليهما معًا، قبل سماعه، وموقفه العقلي يجعله يرفض الإقناع ومن ثم فلا يمنح نفسه فرصة السماع، بل يخشاه، وحسبك في هذا الشأن ما حدث للرسول(صلى الله عليه وسلم) في رحلة الطائف؛ فكانت كلمات الوليد بن المغيرة ترن في آذانهم:" وَاللَّهِ لَقَدْ نَظَرْتُ فِيمَا قَالَ هَذَا الرَّجُلُ، فَإِذَا هُوَ لَيْسَ لَهُ بِشِعْرٍ، وَإِنَّ لَهُ لَحَلَاوَةً، وَإِنَّ عَلَيْهِ لَطَلَاوَةً، وَإِنَّهُ لَيَعْلُو وَمَا يُعْلَى، وَمَا أَشُكُّ أَنَّهُ سِحْرٌ "[15] فحرموا أنفسهم نعمة سماع القرآن خوفًا من تأثرهم به، وهم ما أحدث تأثيرًا سلبيا في نتيجة رحلة الطائف، فاستعداد المتلقي للسماع أمر لابد منه، وبدون تحقق ذلك الشرط يكون الكلام عبثًا. وهذا النوع من المتلقي من أصعب الأنواع في الإقناع وغالبا لا يقتنع فهو معاند في الأغلب الأعم. ومنه أهل الكتاب الذين قال الله عنهم:{ **وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ**}البقرة –145 فلا توجد وسيلة تقنعهم لأنهم يرفضون كل شيء مهما تكن المعجزات التي تقدم لهذا النوع من المتلقي{ **وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ (14) لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ**}الحجر 14 – 15

ولا يشترط في الخطبة الناجحة التي تحقق أهدافها أن تكون صادقة، بل يكفي أن يكون الخطيب مقنعا، مؤمنا بما يقول، حتى لو كانت الرسالة التي تؤديها غير صادقة أو مفيدة، وقد حذر الرسول(ﷺ) من ذلك في الحديث المرفوع المروي في صحيح البخاري، من ذلك فقال: حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْلَمَةَ، عَنْ مَالِكٍ، عَنْ هِشَامِ بْنِ عُرْوَةَ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ زَيْنَبَ، عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ (ﷺ) قَالَ: " إِنَّكُمْ تَخْتَصِمُونَ إِلَيَّ، وَلَعَلَّ بَعْضَكُمْ أَلْحَنُ بِحُجَّتِهِ مِنْ بَعْضٍ، فَمَنْ قَضَيْتُ لَهُ بِحَقِّ أَخِيهِ شَيْئًا، بِقَوْلِهِ: فَإِنَّمَا أَقْطَعُ لَهُ قِطْعَةً مِنَ النَّارِ فَلاَ يَأْخُذْهَا"[16].

وهذا ما يؤكد عليه حازم القرطاجني في قوله: "وإنما صح أن تقع الأقاويل الصادقة في الشعر ولم تصح أن تقع في الخطابة.ما لم يعدل بها عن الإقناع إلى التصديق، لأن ما تقوم به صنعة الخطابة، وهو الإقناع، مناقض للأقاويل الصادقة، إذ الإقناع بعيد من التصديق في الرتبة، والشعر لا يناقض اليقين ما يتقوم به وهو التخييل، فقد يخيل الشيء ويمثل على حقيقته.فلذلك وجب أن يكون في الكلام المخيل صدق وغير صدق، ولا يكون في الكلام المقنع ما لم يعدل به إلى التصديق إلا الظن الغالب خاصة، والظن مناف لليقين"([17]).

وتخاطب الخطبة الناجحة العقل، يقول أرسطو: وأما الحديث عن الفكر فمحله المقالات الخاصة بالخطابة، فإنه أخص بذلك البحث. وكل ما عبر عنه باللغة فهو من قبيل الفكر "[18]، ومن ثم فلابد لها من مخاطبة العقل أولا لا القلب، وليس معنى ذلك أنها لا تدغدغ العاطفة أو المشاعر، بل إن الخطيب البارع هو ذلك القادر على المزج بين مخاطبة العقل والمشاعر، مع الاعتماد على العقل بصورة أكبر؛ لأن تأثير مخاطبة المشاعر تأثير لحظي، سرعان ما يزول، أما مخاطبة العقل بصورة مقنعة فإنها تغير في طبيعة المتلقي، وتفتح أمامه آفاق الفهم والمعرفة، وتجعله منبهرًا بهذه الشخصية القادرة على إضاءة هذه البقعة من الضوء في عقله المظلم.

ومن طرق الإقناع أن يقدم المحاج دليلا على صحة رأيه لا يقبل الشك ولا يمكن رده بحيث تصبح أية كلمة يقولها المتلقي بمثابة الدليل الدامغ على خطأ رأيه ومن ذلك قول الله تعالى :{ **أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ** } البقرة 258 فماذا يقول النمروذ؟ هل يقول إنه لا يستطيع فيكون إقرارا بعجزه؟! فلم يكن أمام النمروذ سوى الصمت لأنه تأكد من عجزه أمام هذه الحجة القوية.

إن أعظم طرق الإقناع تلك التي يتبنى فيها الخطيب الذي يحاجج في قضية أو موقف فكر خصمه؛ فيتبنى الدفاع عنه، لكنه يطور فيه فيجعله لصالحه، ويضع الخصم في موقف المحايد التام؛ فالمحامي الذكي مثلا يستغل مرافعة النيابة أو محامي الخصم، ويدافع عن الأدلة والقرائن التي ساقها الخصم، ثم ينفذ من خلال ثغرة فيها فيجعل أدلة الثبوت هي ذاتها أدلة النفي، فالخطيب الذي يتكلم في مثل هذا الموقف بالعاطفة لن يجني سوى ضياع الوقت، وعدم ثقة الناس به، ومن ثم فلابد أن تكون الحجة العقلية قوية داحضة، تجعل الخصم يقف مسلما بمنطق الخطيب.

والناظر إلى سيرة النبي الكريم يجده يعتمد الحوار العقلي الهادئ مع الناس، منطلقًا في ذلك من قوله تعالى {**ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ**}[19] ، فقد وقف في معظم المواقف وقفة تقوم

على الإقناع العقلي، وهذه المواقف كثيرة في كتب الفقه ومتون الحديث وغيرها أكتفي هنا بذكر نموذج واحد منها، وهو حديث الرجل الذي جاء إلى رسول الله (ﷺ) منكرا لون ولده،" عن أبي هريرة قال: جاء رجلٌ من بني فزارة إلى رسول الله (ﷺ) فقال: يا رسول الله إنّ امرأتي ولدت غُلامًا أسود، فقال له رسول الله (ﷺ): هل لك من إبل؟ قال: نعم، قال: فما ألوانها؟ قال: حُمر، قال: هل فيها من أورق[20]؟ قال: إن فيها لوُرْقا، قال: فأنّى أتاها ذلك؟ قال: عسى عرق نزعها، قال: و هذا لعل عرقا نزعه"[21]، ويمثل هذا الموقف خطورة كبيرة حيث إنه يتعلق بالشرف والنسب وهما من الأمور التي تدفع عند العرب للقتل وإسالة الدماء دفاعا عنهما فكانت تحتاج إلى حكمة وعقل نحو معالجة هذه المشكلة الكبيرة وقد اعتمد الرسول الكريم الآلية الإقناعية العقلية .

وسأعرض فيما يلي نموذجًا من خطب الرسول(ﷺ)، وهي خطبته إلى الأنصار في أعقاب حديث بعد غزوة حنين، في أعقاب حديث دار منهم عن توزيع أنفال حرب الطائف، وهي خطبة تجمع بين مخاطبة العقل والمشاعر أو الوجدان، وسيتضح هذا من تعاملنا المباشر مع هذه الخطبة البديعة.

(4)

نموذج تطبيقي

التطبيق في النقد هو الوسيلة الأنجح لبيان صدق المقولات النظرية في هذا الشأن وسناخذ خطبة الرسول(ﷺ) إلى الأنصار في أعقاب غزوة حنين عندما تبرم بعض الأنصار بمسألة توزيع الغنائم ولنبدأ أولا بطرح نص الخطبة[22]:

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيّ. قَالَ لَمّا أَعْطَى رَسُولُ اللهِ (ﷺ) مَا أَعْطَى مِنْ تِلْكَ الْعَطَايَا، فِي قُرَيْشٍ وَفِي قَبَائِلِ الْعَرَبِ وَلَمْ يَكُنْ فِي الْأَنْصَارِ مِنْهَا شَيْءٌ وَجَدَ هَذَا الْحَيّ مِنْ الْأَنْصَارِ فِي أَنْفُسِهِمْ؟ حَتّى كَثُرَتْ مِنْهُمْ الْقَالَةُ حَتّى قَالَ قَائِلُهُمْ لَقَدْ لَقِيَ وَاَللهِ رَسُولُ اللهِ قَوْمَهُ فَدَخَلَ عَلَيْهِ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ ، فَقَالَ يَا رَسُولَ اللهِ إنّ هَذَا الْحَيّ مِنْ الْأَنْصَارِ قَدْ وَجَدُوا عَلَيْك فِي أَنْفُسِهِمْ لِمَا صَنَعْت فِي هَذَا الْفَيْءِ الْعَرَبِ، وَلَمْ يَكُ فِي هَذَا الْحَيّ مِنْ الْأَنْصَارِ مِنْهَا شَيْءٌ. قَالَ فَأَيْنَ أَنْتَ مِنْ ذَلِكَ يَا سَعْدُ ؟ قَالَ يَا رَسُولَ اللهِ مَا أَنَا إلّا مِنْ قَوْمِي. قَالَ فَاجْمَعْ لِي قَوْمَك فِي هَذِهِ الْحَظِيرَةِ. قَالَ فَخَرَجَ سَعْدٌ فَجَمَعَ الْأَنْصَارَ فِي تِلْكَ الْحَظِيرَةِ . قَالَ فَجَاءَ رِجَالٌ مِنْ الْمُهَاجِرِينَ فَتَرَكَهُمْ فَدَخَلُوا، وَجَاءَ آخَرُونَ فَرَدّهُمْ. فَلَمّا اجْتَمَعُوا لَهُ أَتَاهُ سَعْدٌ فَقَالَ قَدْ اجْتَمَعَ لَك هَذَا الْحَيّ مِنْ الْأَنْصَارِ، فَأَتَاهُمْ رَسُولُ اللهِ (ﷺ) فَحَمِدَ اللهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ بِمَا هُوَ أَهْلُهُ ثُمّ قَالَ: يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ: مَا مقَالَةٌ بَلَغَتْنِي عَنْكُمْ وَجِدَةٌ وَجَدْتُمُوهَا عَلَيّ فِي أَنْفُسِكُمْ؟ أَلَمْ آتِكُمْ ضُلّالًا فَهَدَاكُمْ اللهُ وَعَالَةً فَأَغْنَاكُمْ اللهُ وَأَعْدَاءً فَأَلّفَ اللهُ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ؟ قَالُوا: بَلَى، للهُ وَرَسُولُهُ أَمَنّ وَأَفْضَلُ. ثُمّ قَالَ أَلَا تُجِيبُونَنِي يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ ؟ قَالُوا: بِمَاذَا نُجِيبُك يَا رَسُولَ اللهِ ؟ لِلهِ وَلِرَسُولِهِ الْمَنّ وَالْفَضْلُ. قَالَ (ﷺ)أَمَا وَاَللهِ لَوْ شِئْتُمْ لَقُلْتُمْ فَلَصَدَقْتُمْ وَلَصُدّقْتُمْ؛ أَتَيْتَنَا مُكَذّبًا فَصَدّقْنَاك ، وَمَخْذُولًا فَنَصَرْنَاك ، وَطَرِيدًا فَآوَيْنَاك، وَعَائِلًا فَآسَيْنَاك. أَوَجَدْتُمْ يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ فِي أَنْفُسِكُمْ فِي لُعَاعَةٍ مِنْ الدّنْيَا تَأَلّفْت بِهَا قَوْمًا لِيُسْلِمُوا. وَوَكَلْتُكُمْ إلَى إسْلَامِكُمْ؟ أَلَا تَرْضَوْنَ يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ أَنْ يَذْهَبَ النّاسُ بِالشّاةِ وَالْبَعِيرِ وَتَرْجِعُوا بِرَسُولِ اللهِ إلَى رِحَالِكُمْ ؟ فَوَالّذِي نَفْسُ مُحَمّدٍ بِيَدِهِ لَوْلَا الْهِجْرَةُ لَكُنْت امْرَأً مِنْ الْأَنْصَارِ، وَلَوْ سَلَكَ النّاسُ شِعْبًا وَسَلَكَتْ الْأَنْصَارُ شِعْبًا، لَسَلَكْتُ شِعْبَ الْأَنْصَارِ. اللّهُمّ ارْحَمْ الْأَنْصَارَ، وَأَبْنَاءَ الْأَنْصَارِ. وَأَبْنَاءَ أَبْنَاءِ الْأَنْصَارِ. قَالَ: فَبَكَى الْقَوْمُ حَتّى أَخْضَلُوا لِحَاهُمْ وَقَالُوا: رَضِينَا بِرَسُولِ اللهِ قَسْمًا، وَحَظّا. ثُمّ انْصَرَفَ رَسُولُ اللهِ(ﷺ)وَتَفَرّقُوا.

- **الدراسة الإحصائية:**

هذه الخطبة من النوع المتوسط فقد بلغت كلمات الرسول فيها 118 كلمة

وجاء تقسيم النص إلى خبري وإنشائي على النحو التالي:

- الأساليب الإنشائية:

1- يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ:

2- مَا مقَالَةٌ بَلَغَتْنِي عَنْكُمْ وَجِدَةٌ وَجَدْتُمُوهَا عَلَيّ فِي أَنْفُسِكُمْ؟

3- أَلَمْ آتِكُمْ ضُلّالًا فَهَدَاكُمْ اللهُ

4- وَعَالَةً فَأَغْنَاكُمْ اللهُ

5- وَأَعْدَاءً فَأَلّفَ اللهُ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ

6- أَلَا تُجِيبُونَنِي يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ ؟

7- أَوَجَدْتُمْ يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ فِي أَنْفُسِكُمْ فِي لُعَاعَةٍ مِنْ الدّنْيَا تَأَلّفْت بِهَا قَوْمًا لِيُسْلِمُوا. وَوَكَلْتُكُمْ إلَى إسْلَامِكُمْ

8- أَلَا تَرْضَوْنَ يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ أَنْ يَذْهَبَ النّاسُ بِالشّاةِ وَالْبَعِيرِ وَتَرْجِعُوا بِرَسُولِ اللهِ إلَى رِحَالِكُمْ ؟

9- فَوَالّذِي نَفْسُ مُحَمّدٍ بِيَدِهِ لَوْلَا الْهِجْرَةُ لَكُنْت امْرَأً مِنْ الْأَنْصَارِ،

10- اللّهُمّ ارْحَمْ الْأَنْصَارَ، وَأَبْنَاءَ الْأَنْصَارِ. وَأَبْنَاءَ أَبْنَاءِ الْأَنْصَارِ.

نداء	استفهام	دعاء
1	7	2

البداية بالنداء للتنبيه وجذب اهتمام المستمعين ،والختام بالدعاء ، وبينهما اعتماد كبير على الاستفهام ؛ ولا شك أن أسلوب الاستفهام في الخطبة يخرج عن غرض الاستفهام الحقيقي الذي يتطلب إجابة محددة. فهو هنا لا يبحث عن إجابة لأسئلته؛ وإنما يريد أن يرسل رسائل خاصة للمخاطبين من الأنصار، وبهذا يخرج الاستفهام إلى أسلوب مجازي لا يطابق في دلالته المجازية الدلالة الحقيقية؛ فيصبح هنا بمعنى الخبر، لا بمعنى الإنشاء.

وبخروج الاستفهام من معناه الحقيقي إلى المجازي فيصبح الغرض هنا جمالي فني لا استفهامي ، وغالبا لا يحتاج إلى جواب كما في الإخبار والتحقيق أو في الاستفهام التقريري الذي يحمل فيه المرسل المخاطب على الإقرار بكلامه لأنه غالبا يعرف الجواب ولا يوجد خلاف حوله خاصة في الفعل المنفي، ويعتمد الأسلوب المجازي في الاستفهام على السياق ومدى العلاقة بين المرسل والمستقبل.

- الأساليب الخبرية:

1) أَمَا وَاَللّهِ لَوْ شِئْتُمْ لَقُلْتُمْ فَلَصَدَقْتُمْ إنكاري

2) وَلَصُدّقْتُمْ إنكاري

3) أَتَيْتَنَا مُكَذّبًا فَصَدّقْنَاك ،ابتدائي

4) وَمَخْذُولًا فَنَصَرْنَاك ،

5) وَطَرِيدًا فَآوَيْنَاك،

6) وَعَائِلًا فَآسَيْنَاك.

7) وَلَوْ سَلَكَ النّاسُ شِعْبًا وَسَلَكَتْ الْأَنْصَارُ شِعْبًا، لَسَلَكْتُ شِعْبَ الْأَنْصَارِ.

ابتدائي	تأكيدي	إنكاري
4	1	2

وقد بدأ الرسول خطبته اعتمادًا على الخبر الإنكاري في موضعين ؛ لاستخدام التوكيد بأكثر من اداة في بيان موقف الأنصار من الدين ليؤكد لهم على معرفته بفضلهم ثم بنى باقي الأخبار الابتدائية على هذه النتيجة، ومن المعروف بداهة أن الخبر الابتدائي يأتي لمتلق خال الذهن ولا يحتاج إلى بديهيات عقلية لتصديقه،ومن ثم فلا يحتاج لأدوات تأكيدية، ثم وختم كلامه بخبر تاكيدي لتثبيت الموقف الذي تبناه الرسول من البداية نحو الأنصار.

الأفعال:

بلغت الأفعال في الخطبة 24فعلا متنوعًا أي أن الجملة الفعلية كانت لها اليد العليا في هذه الخطبة وجاءت الأفعال في هذه الخطبة على النحو التالي

جاءت الأفعال الماضية وعددها أربعة عشر فعلا ماضيا بصورة مباشرة للدلالة على الماضي ، وخمسة أفعال ماضية تدل على المستقبل من خلال استخدام زوائد وإضافات مث حرف ل وولو فيكون مجموعها تسعة عشر فعلا ، وفعلا واحدا دعائيا في صيغة الأمر وهو ارحم استخدمه الرسول في نهاية الخطبة .

وجاءت الأفعال المضارعة وعددها أربعة أفعال، ولاشك أن طبيعة الخطبة كونها خطبة سياسية في محضر التوضيح والشرح لبيان الموقف كان اعتماد الرسول فيها على الماضي الذي يفيد التحقق والثبوت والتأكيد، وهو أمر يجعل من استخدام أدوات التوكيد غير ذي بال إذ قام الفعل الماضي بهذ الأمر بصورة طبيعية غير مفتعلة أو مجتلبة.

الاسماء :

كان الوحدة المعجمية (الأنصار) هي الصورة الجلية التي تكررت في بنية الخطبة من الأسماء ، خاصة مع إلحاح الرسول عليها فكان تكرار لفظة الأنصار عشر مرات في الخطبة بنسبة تقترب من 10% من جملة كلمات الخطبة، وذكر الاسم بصورة مباشرة صريحة مع الإلحاح عليه بالتكرار يؤكد على خصوصية الحدث ومكانة الأنصار في الإسلام وقيمتهم عند النبي، فالمرسل عندما يخاطب المتلقي باسمه الصريح يزيل الحواجز بينهما ويجعل العلاقة شخصية مباشرة مما يكن له أبلغ الأثر في نفس المتلقي، وسبيل قوي لتحقيق الإقناع الذي يهدف المرسل تحقيقه في خطبته، وقد أكد الرسول هذه الحقيقة بأكثر من صورة حتى أنه عندما عدل عن استخدام الاسم بصورة مباشرة لجأ إلى ضمير جماعة المخاطبين وفي هذا تخصيص الخطاب لفئة معينة هي المعنية بالخطبة مع العلم أن هناك بعض المهاجرين كانوا حاضرين الخطبة وفي هذا تمييز وتخصيص ، وقد منح الالتفات بالضمير بديلا من الاسم جرسًا موسيقيًا للخطبة بنهاية كل جملة بالضمير ، وكذا "يميل التفكير المطول ذو الأساس الشفاهي، حتى عندما يكون في شكل شعري

إلى أن يكون إبقاعيًا بشكل ملحوظ، لأن الإيقاع ، حتى من الناحية الفسيولوجية يساعد على التذكر"[23]

اعتمدت الخطبة على العطف باستخدام حرف العطف واو الذي تكرر في الخطبة 13 مرة، واعلمْ أنه إنما يَعْرِضُ الإشكالُ في "الواو" دونَ غيرِها مِنْ حروفِ العطفِ، وذاك لأَن تلكَ تفيدُ مع الإشراكِ معانَي، مثلَ أنَّ "الفاء" توجب الترتيب من غير تراخ، و "ثم" توجبه مَع تراخٍ، و "أوْ" تردّدُ الفعلَ بينَ شيئين وتجعلُهُ لأّحِدهما لا بِعَيْنِه، فإذا عطفتَ بواحدة منها الجملةَ على الجملةَ، ظهرتِ الفائدةُ، فإذا قلت: "أعطاني فشكرته"، ظهرَ بالفاءِ أنَّ الشكرَ كان مُعْقَباً على العطاءِ ومسبَّباً عنه وإذا قلتَ: "خرجتُ ثم خرجَ زيدٌ"، أفادتْ "ثم" أن خروجَه كان بَعْدَ خروجِكَ، وأن مُهْلَةً وقعتْ بينهما وإذا قلتَ: "يعطيكَ أو يكسوكَ"، دلَّتْ "أو" على أنه يفعلُ واحداً منهما لا بِعَيْنِه. وليس "للواو" معنى سوى الإشراكِ في الحكمِ الذي يَقْتَضيهِ الإعرابُ الذي أتبعتَ فيه الثانيَ الأولَ. فإذا قلت: "جاءني زيد وعمرو" لم تقد بالواو شيئاً أكثر من إشراك عمرو في المجيء الذي أثبتَّه لزيدٍ، والجمْعِ بينُه وبينَه، ولا يُتَصوَّرُ إشراكٌ بينَ شيئين حتَّى يكونَ هناك معنى يقعُ ذلك الإشراكُ فيه"[24]، ولاشك أن العطف بحرف واحد يعد عنصرًا تتفرد به النصوص الشفاهية عن الكتابية التي تلجأ إلى تنوع العطف مثل ف، ثم،هكذا إذا .... فالنص المكتوب يملك صاحبه المراجعة والتعديل قبل النشر بينما يميل النص الشفاهي إلى السرعة والتتابع للجمل وهو الأمر الذي "يعطي السرد سيولة مع التفريغ التحليلي للجمل القائم على المحاجة العقلية التي تتميز بها الكتابة فالبينات الشفاهية تحقق غالبا ما هو عملي أما البنيات الكتابية فأكثر اهتمامًا بالتركيب"[25]

الدراسة التحليلية:

لننظر إلى هذه الخطبة بعيدًا عن الدراسة اللغوية التقليدية؛ متجاوزين ذلك إلى دراسة السياق والآليات، فسياق الموقف فيه صعوبة بالغة، وخطورة وينذر بحدوث فتنة في الجيش بين الأنصار، هؤلاء القوم الذين آووا ونصروا ودافعوا عن الدين بكل ما يملكون، ومدحهم الله جل وعلا فقال:{ **وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ**} ومكانتهم في الإسلام عظيمة وقيمتهم في نفس الرسول لا يمكن لحد إنكارها فقد جاء في صحيح البخاري باب عَلامَةِ الإيمَانِ حُبُّ الأنْصَارِ عن أنس، قَالَ ((ﷺ)) : تمت آيَةُ الإيمَانِ حُبُّ الأنْصَارِ، وَآيَةُ النِّفَاقِ بُغْضُ الأنْصَارِ –.وقد مدح رسول الله عليه السلام الأنصار فقال: «إنكم لتقلون عند الطمع وتكثرون عند الفزع »[26]فما كانوا ليحزنوا طمعًا في عطية أو مال، وإنما هم بين أمرين؛ فبعضهم اعتقد بأن الرسول(ﷺ) غضب منهم، أو فضل آخرين عليهم وآثرهم بالخير. وكلاهما مر على الأنصار.

وقد بلغ الأمر غايته وشدته بحديث سَعْد بْنُ عُبَادَةَ، عندما امتلك من الشجاعة والجرأة فَدَخَلَ عَلَيْ النبي(ﷺ)، ثم عاتبه على عمله، معتمدًا الالتفات في الضمير منهجًا له في الحديث" فَقَالَ يَا رَسُولَ اللهِ إنّ هَذَا الْحَيّ مِنْ الْأَنْصَارِ قَدْ وَجَدُوا عَلَيْك فِي أَنْفُسِهِمْ لِمَا صَنَعْت فِي هَذَا الْفَيْءِ الْعَرَبِ". فهو يحكي بصورة المشاهد غير المشارك، وعندما سأله الرسول عن موقفه قَائلا: فَأَيْنَ أَنْتَ مِنْ ذَلِكَ يَا سَعْدُ؟ وهو سؤال مهم فقد يكون غرض سَعْد بْنُ عُبَادَةَ إبلاغ الرسول (ﷺ)بمعلومة عن موقف حادث، دون أن يكون طرفًا فيه، فأراد الرسول(ﷺ) أن يستوثق من موقفه، وكان الرد في صورة رسالة خطيرة. حقا لم يمتلك سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ الشجاعة في أن يقول: إنه يؤيد رأي قومه، لكن إجابته هذه كانت واضحة، مغلفة بالحياء من النبي، "قَالَ يَا رَسُولَ اللهِ مَا أَنَا إلّا مِنْ قَوْمِي". هذا هو الموقف قبل الخطبة، وتوضيحه أمر لابد منه لبيان خطورة الأمر.

جمع الرسول (ﷺ)الأنصار وهو يعي خطورة الموقف، ولننظر إلى بداية الخطبة: فَأَتَاهُمْ رَسُولُ اللهِ (ﷺ) فَحَمِدَ اللهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ بِمَا هُوَ أَهْلُهُ ثُمّ قَالَ يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ: مَا مقَالَةٌ بَلَغَتْنِي عَنْكُمْ وَجِدَةٌ وَجَدْتُمُوهَا عَلَيّ فِي أَنْفُسِكُمْ؟ فقد بدأ الرسول (ﷺ)الخطبة بالمقدمة الدينية التي تجتذب القلوب بحمد الله والثناء عليه، فهي مقدمة تمهيدية، فيها جانب عاطفي، ثم بدأ خطبته بسؤال استنكاري، يحمل فيه طياته العتاب أكثر من السؤال، رفض فيه موقف الأنصار في وصول تفكيرهم إلى هذا الظن السيئ به، وعاتبا عليهم من خلال السؤال عن الألم الذي شعر به الأنصار في أنفسهم بسبب هذا الأمر.

ثم انتقل الرسول(ﷺ) إلى المرحلة الثانية وهي مرحلة إقناعية عقلية، اعتمد فيها الرسول على مجموعة من الآليات منها الاستفهام الاستنكاري، فقال: " أَلَمْ آتِكُمْ ضُلّالًا فَهَدَاكُمْ اللهُ وَعَالَةً فَأَغْنَاكُمْ اللهُ وَأَعْدَاءً فَأَلّفَ اللهُ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ قَالُوا: بَلَى، اللهُ وَرَسُولُهُ أَمَنّ وَأَفْضَلُ" ونلاحظ سيطرة الاستفهام الاستنكاري على هذه المرحلة من خلال صيغة الاستفهام التقريري،وهذه التقنية له غرض رئيس ذكره عبد القاهر في قوله" أَنه لِيَتَنَبَّه السامعُ حتى يَرجعَ إلى نفسِه فيخجلَ ويرتدعَ ويعيي بالجواب، إمَّا لأنه قدِ ادَّعَى القدرةَ عَلَى فِعْلٍ لا يَقدرُ عليه، فإذا ثبتَ على دَعْواه قيل له: "فافْعَلْ"، فيَفْضحُه ذلك، وإمَّا لأنه هم بأنْ يفعلَ ما لا يَسْتصوِبُ فِعْلَه، فإذا رُوجع فيه تنبَّه وعرَفَ الخطأَ وإمّا لأنه جوَّزَ وجودَ أمرٍ لا يُوجَدُ مثلُه، فإذا ثبت على تجويزه قبح على نفسه، وقيلَ له: "فأَرِناهُ في موضعٍ وفي حالٍ، وأقِمْ شاهداً على أنَّه كان في وقْت"[27]. وإجابته واضحة محددة بنعم أو بلا، ولا يملك الأنصار سوى إجابة واحدة؛ لأنها الحقيقة، وهي بلى يا رسول الله، فقد هداهم الله إلى الإسلام، وأعزهم الله به، وأصبحت مدينتهم عاصمة العالم الإسلامي، ومقصدهم وقبلتهم، وأصلح بين أعظم قبيلتين في المدينة الأوس والخزرج.ذلك أن " استخدام الصيغة الاستفهامية من أنجع وسائل البلاغة

في المساعدة على تقدم الحجاج والجدل نحو حل قضية مختلف عليها- كما أنها- أيضًا- تثير انتباه المتلقي وتشحذ فكره وتدفعه إلى متابعة الجدل"[28].

واستمر الرسول (ﷺ)في الاعتماد على هذه التقنية العقلية ولكنه هنا نقل الاتجاه وحوله إلى صورة عكسية، وذلك عن طريق الاعتماد على المقارنات، فالمقارنات تضع كفتين واحدة أمام الأخرى وتبرز القيمة الحقيقية للشيء المراد الإقناع به، فالشيء يبرز بضده، وقد اعتمد الرسول(ﷺ) على هذه الآلية العقلية القوية بدأها بالمقارنة الأولى بين فضل الله على الأنصار في الهداية إلى الإسلام ونعم الله عليهم بالإيمان ثم ما قدموه للاسلام، وكانت هذه المقارنة الأولى، ثُمّ قَالَ أَلَا تُجِيبُونَنِي يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ؟ قَالُوا: بِمَاذَا نُجِيبُك يَا رَسُولَ اللهِ؟ لِلّهِ وَلِرَسُولِهِ الْمَنّ وَالْفَضْلُ. قَالَ (ﷺ)أَمَا وَاَللهِ لَوْ شِئْتُمْ لَقُلْتُمْ فَلَصَدَقْتُمْ وَلَصُدّقْتُمْ أَتَيْتَنَا مُكَذّبًا فَصَدّقْنَاك، وَمَخْذُولًا فَنَصَرْنَاك، وَطَرِيدًا فَآوَيْنَاك، وَعَائِلًا فَآسَيْنَاك. طلب منهم الرسول الرد، وقد فهموا الرسالة؛ فهو قد عد فضل الإسلام عليهم، وهم لن يمنوا على الله ورسوله بما فعلوه من أجل الدين، وهنا اللمحة الذكية من الرسول(ﷺ) واضحة منذ اللحظة الأولى، وقد فهمها الأنصار، فالرسول (ﷺ)يتبنى موقفهم، ويدافع عنهم، فقال: إنكم لو تكلمتم ستكونون صادقين وستصدقكم الناس؛ لأنكم لا تقولون إلا الحقيقة: جئت إلينا، وأهلك مكذبون لك ونحن صدقناك، ومخذولا فجعلنا لك جيشًا ودولة، وكنت طريدة هدفًا لقومك فدافعنا عنك، وَعَائِلًا(فقيرًا محتاجا لا تملك شيئا) فَآسَيْنَاك، ودعمناك نفسيًا وروحيًا وماديًا، ولم يقل واسيناك لأنها تكون في الحزن فقط.

والملاحظ في الموقفين السابقين أن الرسول لم يستخدم جملة واحدة بل اعتمد الاطناب والتكرار بصيغ مختلفة عدد فيها فضل الإسلام على الأنصار وما قدمته الأنصار لهذا الدين في صورة حمل تركيبية متوالية وليست وحدات مفردة ، وهي سمة مهمة من سمات النص الشفاهي إذ إن "عناصر الفكر والتعبير الشفاهيين لا تميل إلى ان تكون وحدات منفردة بسيطة بل إلى أن تأتي على هيئة عناقيد من الوحدات من الوحدات كتلك العبارات المتوازية أو المتعارضة ، سواء كانت في جمل بسيطة أو مركبة ، أو كانت نعوتًا "[29]، فهنا أربعة مواقف توضح فضل الأنصار، وجهودهم في خدمة الإسلام، مقابل ثلاثة لهم تبين فضل الإسلام عليهم، والصورتان عرضهما النبي، فقد تبني الرسول(ﷺ) موقف الأنصار، ودافع عنهم، وتحدث بلسانهم كأعظم محام يدافع عن قضية، فلو تبنيتَ موقف خصمك، ودافعتَ عنه فقد حيدته تمامًا، وأخرجته من حلبة الصراع، وأصبح على استعداد لتقبل كل ما تود إقناعه به، وهو أعلى درجات الإقناع العقلي،" فالمبدع حين يصطنع جدلا مع المتلقي- يكون قد أشركه معه في بناء المعنى إشراكًا ضمنيًا، ويكون قد أعطاه حق النقض، وهو ما يميز الاستفهام عن غيره من الأساليب"[30]. ولاشك في أن هذا الموقف قد ترك أثره الواضح في نفوس الأنصار الذين تأكدوا من ثقة الرسول(ﷺ) فيهم، وإنه يعرف قدرهم

الحقيقي، ومكانتهم لم تهتز عنده، ولاشك أن الأنصار بعد هذه الكلمات قد مالت نفوسهم لسماع كل ما يلقيه الرسول(ﷺ).

وقد أكد الرسول(ﷺ) هذا الموقف من خلال ترتيبه للحديث البداية، فقد بدأ يعدد فضل الله عليهم، والتغير الذي حدث لهم بانتقال الرسول (ﷺ)بينهم، ثم أنهى حديثه بسؤاله التقريري، ثُمّ قَالَ أَلَا تُجِيبُونَنِي يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ؟ قَالُوا: بِمَاذَا نُجِيبُك يَا رَسُولَ اللهِ؟ لِلّهِ وَلِرَسُولِهِ الْمَنّ وَالْفَضْلُ. فالطبيعي إن يفكر الأنصار أنهم أيضا خدموا الدين ونصروه وهم لن يقولوا هذا بشكل صريح، فلن يمنوا على الله ورسوله، وهنا تبنى الرسول(ﷺ) موقفهم، ورد على نفسه بالردود المذكورة أنفًا، ولنتخيل أن الحديث قد تغير اتجاهه بحيث يبدأ الرسول(ﷺ) بفضل الأنصار ثم يرد عليهم بفضل الله عليهم، فسيكون الموقف وقتها عكس ما يشتهي الأنصار، أما وقد بدا الرسول(ﷺ) بتعداد فضل الدين عليهم وقام بالرد عليه بصورة قوية بلسان الأنصار فقد كانت فرصته قوية ليضع الأمرين في كفة الميزان لترجح كفة أعمال الأنصار بلسانه وشهادته لهم.

بعد أن اطمئن الرسول(ﷺ) إلى أنه قد امتلك عقولهم، بقي عليه أن يسيطر على قلوبهم، والسيطرة على القلب أسهل كثيرًا من السيطرة على القلب، فلو سيطرت على العقل أصبح أمر القلب سهلا، هنا انتقل الرسول(ﷺ) إلى المرحلة الثالثة من خطبته، ومزج الرسول(ﷺ) في هذه المرحلة بين العاطفة والعقل؛ للوصول إلى الإقناع والتسليم التام من الأنصار بصحة موقف الرسول(ﷺ)، فعاتبهم على حزنهم من أجل شيء تافه لا يساوي شيئا (لعاعة) [31]، أَوَجَدْتُمْ يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ فِي أَنْفُسِكُمْ فِي لُعَاعَةٍ مِنْ الدّنْيَا تَأَلّفْت بِهَا قَوْمًا لِيُسْلِمُوا. وَوَكَلْتُكُمْ إلَى إسْلَامِكُمْ. يشرح الرسول(ﷺ) في هذه المرحلة مسوغات ما فعل من رغبته في تأليف قلوب مسلمين حديثي عهد بالدين، يظنون أن الإسلام كله أن تدفع زكاة وصدقة، وتُحْرَم مما تحب وتشتهي، فرغب الرسول(ﷺ) في بيان أن الإسلام أيضا فيه خير وأنفال وعطايا، وهي آلية ذكية من الرسول(ﷺ) في جذب قلوب الناس نحو الدين، ثم أخبر الرسول(ﷺ) الأنصار بالمسوغ الذي من خلاله منع الرسول(ﷺ) الفيء عن الأنصار، وهو أنه يثق في إيمانهم واعتمد على هذا، وبحيث كان الرسول(ﷺ) ناجحًا في الاعتماد على تقنية ذكية مثل هذه فهو قد بين لهم أنهم أكبر عنده من هذا، وحقر الأمر أمامهم فجعلهم يرتفعون إلى السماء، ثم يخفضون رؤوسهم إلى الأرض خجلا من سوء ظنهم في الرسول(ﷺ) الذي يراهم أكبر من كل العرب الذين يشتري قلوبهم بالمال. وكانت هذه النتيجة التي وصل إليه خطاب الرسول(ﷺ) مبنية على قاعدة حجاجية هي قلب البرهان على صاحبه retorsion:التي تنص على اعتماد حجة الخصم وإثبات أنها فى حقيقة الأمر تناقض ما يذهب إليه أى تقف ضده"[32]. بدأها بأسئلته الاستنكارية المتتالية

وهذه الآلية هي وسيلة الرسول(ﷺ) في مرحلته التالية في خطبته عندما ينتقل إلى المرحلة الأخيرة من خطبته وهي مرحلة مزج فيها الرسول(ﷺ) بين الجانب العاطفي القلبي والجانب العقلي فالمرحلة السابقة كانت تمهيدًا للنهاية القلبية الخالصة التي ختم بها الرسول(ﷺ) خطبته" أَلَا تَرْضَوْنَ يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ أَنْ يَذْهَبَ النّاسُ بِالشّاةِ وَالْبَعِيرِ وَتَرْجِعُوا بِرَسُولِ اللهِ إِلَى رِحَالِكُمْ ؟ فَوَالّذِي نَفْسُ مُحَمّدٍ بِيَدِهِ لَوْلَا الْهِجْرَةُ لَكُنْت امْرَأً مِنْ الْأَنْصَارِ، وَلَوْ سَلَكَ النّاسُ شِعْبًا وَسَلَكَتْ الْأَنْصَارُ شِعْبًا، لَسَلَكْتُ شِعْبَ الْأَنْصَارِ. اللّهُمّ ارْحَمْ الْأَنْصَارَ، وَأَبْنَاءَ الْأَنْصَارِ. وَأَبْنَاءَ أَبْنَاءِ الْأَنْصَارِ. قَالَ فَبَكَى الْقَوْمُ حَتّى أَخْضَلُوا لِحَاهُمْ وَقَالُوا: رَضِينَا بِرَسُولِ اللهِ قَسْمًا، وَحَظّا. ثُمّ انْصَرَفَ رَسُولُ اللهِ(ﷺ)وَتَفَرّقُوا" فقد عقد الرسول(ﷺ) مقارنة بين حال العرب الذين عادوا بالشاة والبعير، وحال الأنصار الذين عادوا بالرسول (ﷺ)، معتمدًا على صيغة السؤال الاستفهام التقريري التي فرضها الرسول(ﷺ) على الخطبة كلها، مع اعتماد آلة جديدة هي المقابلة بين مبدأ أو فكرة ونتائجها العمليةأى أن المتكلم متى أراد دفع مبدأ معين أنشأ مفارقة بينه وبين نتائجه السلبية إن طبق وأصبح واقعًا فأكد بذلك أنه لم يجانب الصواب حين رفضه ولذلك تنشأ المقابلة عادة على سبيل الافتراض"[33].، فجاءت المقارنة الثانية هنا بين الأنصار في اتجاه والناس في اتجاه آخر ، فاستخدم الرسول(ﷺ) أكثر من تقنية بلاغية لتحقيق هذه المفارقة،جاءت التقنية الأولى معتمدة على التي يعرفها عبد القاهر الجرجانى بقوله " أن يريد المتكلم إثبات معنى من المعانى فلا يذكره باللفظ الموضوع له فى اللغة، ولكن يجىء إلى معنى هو تاليه وردفه فى الوجود فيومئ به إليه ويجعله دليلا عليه"[34]. "وفي ذلك بعد عن المباشرة والتصريح، وفيه من الخفاء الشفيف والإشارة والإيحاء ما يؤثر في المتلقي ويجذب انتباهه، ليتفاعل مع الصورة التي تستثير وجدانه وتمتعه"[35]، ولاشك أن الكناية لها طبيعتها المتمايزة عن فنون التشبيه الأخرى إذا تحفز العقل وتسهم في بناء الصورة عن طريق التلازم بين المعنيين بصورة رمزية، "إذ يمكن حسبان الكناية متصلة بالرمز بناء على وجود معنى عميق خفى لا يتوصل إليه إلا بعد تأمل ودقة نظر"[36].

ويرى سعد أبو الرضا أن تشكيل بنية الكناية له خصوصية إذ يتم " بناء على علاقة بين المعنى الموضوع أصلا باللفظ وما يوحى به فى سياقه الجديد، وهذا التنوع والتعدد يدعم الدلالة وتأثيرها فى المتلقى ، وقد تضاعف من إثبات الفكرة أو المعنى؛ بحيث يصبح أبلغ وآكد وأكثر إيحاء بعد أن زادت الصياغة فى إثباته"[37].

وعلى ذلك فإن الكناية تسهم النص في بناء مستوى خاص فى تشكيل الصورة البيانية يختلف بشكل جلي عن التشبيه والاستعارة، وتتابين عنهما بالتعقيد وفتح المجال للقارئ في التخيل ورسم صورة خاصة ؛ إذ تعتمد الكناية للخيال على "وجود المعنى السطحى الظاهر اللغوى، والمعنى العميق

المجازى، الذى يرمز إليه ظاهر اللفظ وكلا المعنيين وارد مقصود فى دلالة الكناية، وبينهما تلازم يجعل درجة التركيب والتقعيد فى الكناية تمثل مستوى ثالثًا فى تشكيل الصورة البيانية"[38].

وقد لجأ الرسول(ﷺ) في منتصف الخطبة إلى تقنية الالتفات من خلال وضعه الشاة والبعير في كفة ورسول الله في الكفة الأخرى، ونلاحظ أنه وهو المرسل المستخدم لضمير المتكلم في الخطبة في مواضع مختلفة لكنه في هذه المقارنة مال عنه ملتفتا بضمير الغائب بقوله (رسول الله) وكان السياق الطبيعي (وتعودون بي في رحالكم) لكنه استخدم هنا لفظة الرسول(ﷺ) ومالها من العظمة ثم إضافتها إلى الله، ثم أكد الرسول(ﷺ) موقفه الداعم للأنصار، فقد أقسم(فوالذي نفس محمد بيده)مستخدما ضمير الغائب ولم يقسم (بالله) والقسم للتأكيد مع اللام في لكنت للتأكيد أيضًا وسبق كل هذا فاء السرعة وهو تأكيد فوق التأكيد تجاوز به مفهوم الخبر الإنكاري الذي يستخدم معه أكثر من أداة للتأكيد، مع العودة لضمير المتكلم (لكنت) لكسر الحد الفاصل بينه وبين الانتماء للأنصار، الذي هو هجرته من مكة إلى المدينة، بل هو جزء منهم، فلو اختار الناس كلهم طريقا ومشوا فيه ومشى الأنصار في طريق لمشي في طريق الأنصار تابعا لهم، ومعها لا يملك الأنصار سوى إجابة واحدة معروفة سلفًا، وهي التسليم والإذعان التام له.

وختم الرسول(ﷺ) كلامه معهم بالدعاء لهم ولأبنائهم وأبناء أبنائهم، وهو دعاء باق إلى يوم القيامة بينما ما أخذه الناس من الشاة والبعير يفنى ويزول، ومن ثم فقد ربحوا في نهاية الأمر، وقد ظهرت نتيجة الخطبة سريعًا من خلال تسليم الأنصار للرسول بكل ما يريد ، وهذا يؤكد "إن الصلة بين التأثير العاطفى والانفعالى للصور الخيالية والإقناع وثيقة للغاية،"فالأدلة العاطفية تقيم رباطًا محكمًا من الثقة بين المتلقين والمحاجج، فالمتلقى الذى يتماهى عاطفيًا مع المتحدث يكون أكثر ميلا لقبول دعواه".[39] وقد برز ذلك واضحًا في أمرين؛ الأول بكاؤهم الشديد حتى أخضلوا لحاهم، وهو أمر يدل على شدة البكاء حياء وخجلا وتأثرًا بموقف الرسول(ﷺ) وهو رد أبلغ من الكلام.

والثاني ردهم على السؤال الذي بدأه بـ(أَلَا تَرْضَوْنَ يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ) بقولهم:وَقَالُوا: رَضِينَا بِرَسُولِ اللهِ قَسْمًا، وَحَظًّا، وهو تدعيم للموقف الأول وتأكيد له. فظهر نجاح الرسول(ﷺ) التام فيما رغب فيه من إقناع الأنصار بصحة موقفه وهو الذي يؤكد أن الحجاج "يعكس ديناميكية حوارية قد تصل بأحد المتحاجين إلى الإذعان/القبول، وقد لا تصل به، فهو أفق مفتوح للحوار" [(40)] وهنا وصل الحجاج إلى نهايته بالإذعان والقبول التام .

ونلاحظ في هذه الجملة نجاح الرسول(ﷺ) في مخاطبة جموع الأنصار بما يفهمونه من الكلام فقد تحقق في ختام الخطبة الشرط الذي وضعه أرسطو لمخاطبة العامة" فيجب أن تكون المخاطبة التي يتلقاها العامي بعاميته من الجنس الذي لا يسترفعه عن مقامه استرفاعا بعيدًا كأنه

متعال عن درجة مثله، بل يجب أن يكون الفائق فيها فائقا في الباب، أعني أن يكون المقتدر على إجادته معدودًا في جملة مخاطبي العامة، لكنه أثقف منهم من غير مجاوزة لحدودهم"[41]

وقد مثل الزمن عنصرا رئيسًا في نجاح الخطبة في تحقيق هدفها، والوصول إلى هدفه عن طريق اختيار الزمن المناسب لإلقاء الخطبة؛ فقد رد الرسول على حديث سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ ردًا مباشرًا طالبًا منه جمع أنصار للاجتماع بهم فورا؛ حتى يئد الفتنة في مهدها، ولنتخيل أن الأمر تأخر قليلا ماذا كان سيحدث؟ إن الأنصار غاضبون عاتبون على النبي، ينتظرون تفسيرًا لهذا التصرف الغريب من وجهة نظرهم، ولو تأخر الأمر فسيعطي الرسول الفرصة للشيطان كي يتلاعب بعقولهم، ولأصحاب لقلوب المريضة في الفتنة والوقيعة، لقد كان سر رفض جل المصريين لخطابات الرئيس المخلوع تأخره في الخروج عليهم؛ بحيث صار ما يستجيب لهم من مطالب في خطابه أقل من طموح اللحظة التي يقال فيها، والتي تجاوزها الناس إلى مطالب أكثر مما قيلت.

ثمة فارق كبير في الموقف بين أناس عاتبين متسائلين ينتظرون تفسيرًا لموقف غمض عليه، وأناس غاضبين يحملون حقدًا وكراهية، فالمجموعة الأولى تنتظر التفسير وعندها رغبة وشوق لسماع الخطبة. بينما يعمي الغضب المجموعة الثانية فلا تكون لديها مجرد الرغبة في الاستماع، ومحاولة إجبارها على الاستماع هي محاولة مقضي عليها بالفشل؛ لأنهم وقتها يقفون منك موقف المتحفز المتربص الذي يبحث لك عن أخطاء في حديثك، ويفسرون كل كلمة أو إيماءة تفسيرات بعيدة، وتأويلات لا تمت للواقع بصلة، وهي حالة لا تسمح لك بتحقيق النجاح في هدفك.

إن الوقوف على موقف المتلقين ومعرفة رغبتهم في الاستماع من عدمه من أهم القواعد التي يجب مراعاتها حتى تحقق الخطبة الناجحة هدفها؛ فكان قيام الرسول (ﷺ) بالعتاب للأنصار ثم توجيه الاسئلة الانكارية هو ما اصطلح العرب على تسميته براعة الاستهلال، وكيف تبدأ رسالتك التي تريد توصيلها بصورة تجذب لك قلوب الناس وأسماعهم؟ يقول:"وحسن الابتداء، أو براعة المطلع: هو أن يُجعل أول الكلام رقيقاً سهلاً، واضح المعاني، مُستقلا عمّا بعده، مناسباً للمقام، بحيث يجذب السامع إلى الاصغاء بكلّيته، لأنه أول ما يقرع السمع، وبه يُعرف ممّا عنده قال ابن رشيق: إن حسن الافتتاح داعية الانشراح، ومطية النجاح – وذلك كقول الشاعر:

المجد عوفي إذ عوفيتَ والكرم

وزال عنك إلى أعدائك السَّقم

وتزداد براعة المطلع حسناً، إذا دلت على المقصود بإشارة لطيفة وتسمى براعة استهلال (1) وهي أن يأتي الناظم، أو الناثر: في ابتداء كلامه بما يدلّ على مقصودة منه، بالإشارة – لا بالتصريح[42].

ثمة أمر آخر في خطبة الرسول(ﷺ)، وهو ترتيب الكلام في الحديث؛ فالبدء بخطاب العقل مهد الأنصار لتقبل موقف الرسول(ﷺ)، وأصبح القلب مهيئا للتصديق بعد أن سلم العقل،

وهذا سر من أسر تحقيق هذه الخطبة الهدف المرجو منه، فلو بدلنا الحديث وبدأ الرسول(ﷺ) بنهاية الخطبة، أي الاعتماد على مخاطبة القلب لا العقل، بالتأكيد على أنه لا فرق بينه وبين الأنصار سوى الهجرة، وإقراره (ﷺ) بفضل الأنصار ودورهم في خدمة الإسلام، وإنه يسير خلفهم، ثم الدعاء لهم. سيكون الأمر مختلفا، فالعاطفة هنا ستكون أقل تأثيرا في نفوس المتلقين؛ لأن الكلام ليس له واقع يؤيده، فقد منح المسلمين الجدد الأنفال كلها تقريبًا وحرم منها الأنصار، ومن ثم فلن تؤدي الخطبة هدفها لأنها لن تبني على العقل بل العاطفة وحدها، وهو ما يجعلها قصيرة العمر ضعيفة التأثير، تنهار إذا ما وقفت أمام الواقع المادي الملموس، وهو ما وضح في ترتيب الكلام وبدايته العقلية التي خلقت واقعًا جديدًا غير الواقع الموجود فعلا، ذلك الواقع الجديد الذي خلقه الرسول(ﷺ) من خلال التقدمة العقلية تجاوز من خلاله الواقع الملموس إلى واقع أكثر عمقًا وأبعد تأثيرًا، وهذه التقنية من أفضل تقنيات الحجاج البلاغي التي لا تعمد آلية واحدة بل تتنوع صورها "ولا يقتصر تأثير الحجج البلاغية على التأثير الانفعالى والعاطفى فى المتلقى فـ " الحجاج البلاغى هو حجاج موجه للقلب والعقل معًا. إذ يجمع بين المضمون العقلى للحجة وصورها البيانية، أو بين التبرير العقلى والمحسنات البيانية"[43].

الهوامش:

[1] – هدى وصفي– أحمد يحيي، المقال الجدلي، مكتبة الآداب، 2010، الطبعة: الأولى، ص61.

[2] – السابق، ص.53

9-Perelman "The idea of justice and The problem of argument ,Translated from The french by John Petrie. New york. The humanities ,press 1960 ,p140.

[4] – عبد الله صولة: الحجاج أطره ومنطلقاته وتقنياته من خلال مصنف فى الحجاج الخطابة الجديدة، ضمن كتاب أهم نظريات الحجاج فى التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم، إشراف: حمادي صمود.ص301.

[5] –الجاحظ:الحيوان، تحقيق/عبد السلام مُحَمَّد هارون، الهيئة العامة لقصور الثقافة، سلسلة الذخائر76، ج3 ص:130–131.

[6] – ابن جني أبو الفتح عثمان بن جني الموصلي (ت 392هـ) : الخصائص، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الطبعة: الرابعة د.ت، ج34/1.

[7] – د. مُحَمَّد عناني: المصطلحات الأدبية الحديثة،الطبعة الثانية 3006م، لونجمان، ص: 35– 36.

[8] – ياكبسون: قضايا الشعرية: ترجمة مُحَمَّد الولي ومبارك حنون، ط 1المغرب، دار توبقال للنشر1988م، ص: 27، وانظر أيضًا: جوناثان كولر: :الشعرية البنيوية، ترجمة: السيد إمام، دار شرقيات، القاهرة،2000م، ص80.

[9] - رومان ياكبسون: قضايا الشعرية، ص:32

[10] - المرزوقي أحمد بن مُحَمَّد بن الحسن (ت421هـ): شرح ديوان الحماسة المقدمة، تحقيق أحمد أمين وعبد السلام هارون، بيروت دار الجيل 1991، ص: 16.

[11] – حازم القرطاجني: (ت684هـ): منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تقديم وتحقيق/مُحَمَّد الحبيب ابن الخوجة، الطبعة الثالثة1986م، دار الغرب الإسلامي، بيروت لبنان، ص:70.

12 الحجاج عند أرسطو :: ص79 .

[13] – د/ شكري عياد: كتاب أرسطو طاليس في الشعر(نقل أبي بشر متى بن يونس القنائي من السرياني إلى العربي)، حققه مع ترجمة حديثة ودراسة لتأثيره في البلاغة العربية الدكتور شكري مُحَمَّد عياد، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1993م،ص:200.

[14] – ياكبسون: قضايا الشعرية، ص:28.

[15] – الطبري: تفسير الطبري: تحقيق أحمد مُحَمَّد شاكر، الطبعة الأولى2000م ، مؤسسة الرسالة، ج25/24.

[16] – البخاري: صحيح البخاري، المحقق: مُحَمَّد زهير بن ناصر الناصر،الناشر: دار طوق النجاة الطبعة: الأولى، 1422هـ، ج3\180

[17] – حازم القرطاجني: منهاج البلغاء وسراج الأدباء، ص:70. وهو الموقف نفسه الذي أخذه أبو حيان، انظر المقابسات:أبو حيان التوحيدي، علي بن مُحَمَّد بن العباس، تحقيق: حسن السندوبي، دار سعاد الصباح، الطبعة: الثانية، 1992 م، ص:300.

[18] – أرسطو:كتاب أرسطو طاليس في الشعر(نقل أبي بشر متى بن يونس القنائي من السرياني إلى العربي)، حققه مع ترجمة حديثة ودراسة لتأثيره في البلاغة العربية الدكتور شكري مُحَمَّد عياد، ص:106.

[19] – سورة النحل، الآية 125

20 – الأورق من كل شيء ما كان لونه لون الرماد، والأورق من الإبل: ما في لونه بياض و سواد .

21 – الحديث حسن صحيح، انظر سنن ابن ماجه، ص 339 .

[22] – نص الخطبة من سيرة ابن هشام

[23] - والتر وانج : الشفاهية والكتابية، ترجمة د. حسن البنا عز الدين، عالم المعرفة ، ع182، فبراير 1994م، ص:94.

[24] - عبد القاهر الجراجاني دلائل الإعجاز في علم المعاني (المتوفى: 471هـ)، المحقق: محمود محمد شاكر أبو فهر، مطبعة المدني بالقاهرة - دار المدني بجدة، الطبعة: الثالثة 1413هـ - 1992م، ص: 224.

[25] - والتر وانج : الشفاهية والكتابية،ص: 98.

[26] – ابن بطال(المتوفى: 449هـ)، :شرح صحيح البخارى، تحقيق: أبو تميم ياسر بن إبراهيم،دار النشر: مكتبة الرشد – السعودية، الرياض الطبعة: الثانية، 1423هـ – 2003م ،254/9

[27] - عبدالقاهر الجرجانى: دلائل الإعجاز،ص 119- 120.

[28] هدى وصفي– أحمد يحيى: المقال الجدلي،ص68.

[29] - والتر وانج : الشفاهية والكتابية، ص: 99.

[30] حسني عبدالجليل: أساليب الاستفهام فى الشعر الجاهلي، مؤسسة المختار، 2001، ط1، ص7.

[31] – قال ابن منظور: وَمِنْهُ قِيلَ فِي الْحَدِيثِ:إِنما الدُّنْيَا لُعاعةٌ.، يَعْنِي أَنَّ الدُّنْيَا كَالنَّبَاتِ الأَخضرِ قَليل الْبَقَاءِ؛ وَمِنْهُ قَوْلُهُمْ: مَا بَقِيَ فِي الدُّنْيَا إِلَّا لُعاعةٌ أَي بقِيَّةٌ يَسِيرَة.

[32] المرجع السابق، ص 196.

[33] سامية الدريدى: الحجاج فى الشعر العربى "بنيته وأساليبه"، ص 194.

[34] عبدالقاهر الجرجانى: دلائل الإعجاز، ص 66.

[35] سعد أبو الرضا: الكناية بين الأمس واليوم، أعمال المؤتمر الدولى الرابع للنقد الأدبى، ج 1، العلم والإيمان، 2010، الطبعة الأولى، ص 66.

[36]– سامية الدريدى: الحجاج فى الشعر العربى "بنيته وأساليبه"، ص:110.

[37] المرجع السابق، ص62.

[38] المرجع السابق، ص60.

[39] **Argumentation and Critical Thinking Rhetoric, p3.http:\\www.sheftman.com\rhetoric.htm1**

نقلا عن: جميل عبد المجيد: مدخل إلى بلاغة الخطاب القضائى، أعمال المؤتمر الدولى الرابع للنقد الأدبى (القاهرة– نوفمبر2006)،ج3، العلم والإيمان ، 2010،الطبعة: الأولى، ص71.

(40) – د.عماد سعد شعير:الحجاج في شعر أبي العلاء، رسالة دكتوراه مخطوطة ،كلية الآداب جامعة حلوان 2008م، ص:22.

[41]- أرسطو: الخطابة، تلخيص وشرح/أبي علي بن سينا، تحقيق دكتور/ مُحَمَّد سالم سليم، سلسلة الذخائر، الهيئة العامة لقصور الثقافة العدد 180 ، 2009م، ص: 2.

[42]– أحمد بن إبراهيم بن مصطفى الهاشمي:جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع، ضبط وتدقيق وتوثيق: د. يوسف الصميلي،الناشر: المكتبة العصرية، بيروت،ص: 343.

[43]– سامية الدريدى: الحجاج فى الشعر العربى "بنيته وأساليبه"، مرجع السابق، ص 110.